المنهج النفسي

يقتضي الحديث عن المنهج النفسي في النقد الأدبي تحليل العلاقة القائمة بين علم النفس و الأدب ، و هو الأمر الذي وقفت عنده الدراسات الأدبية و الدراسات النفسية منذ نشأة كليهما ، فدارسوا الأدب ربطوا منذ القديم بين العمل الأدبي و الحالات النفسية و الوجدانية لدى المبدع من جهة و لدى متلقي العمل من جهة ثانية . و ما القول بفكرة الشاعر المجنون في الثقافة العربية القديمة إلا وجها من وجوه التركيز على كون قائل الشعر إنسانا غير عادي تنتابه حالات نفسية جنونية توحده مع شيطانه و تؤدي به إلى الإبداع ، ثم إن نظرية التطهير الأرسطية هي نظرية تختص بالأثر النفسي لدى متلقي العمل الأدبي ، فوظيفة الشعر في التراجيديا هي في النهاية تنمية عاطفتي الشفقة و الخوف عند المتفرج ، و لعل هذا ما جعل أرسطو يشترط في البطل التراجيدي ثلاثة شروط أساسية هي :

-أن ينتمي البطل إلى طبقة النبلاء لأن سقوط النبيل أشد وقعا في النفوس من سقوط الإنسان العادي.

-ألا يكون البطل فاضلا بشكل مطلق و لا رذيلا بشكل مطلق لأن سقوط الفاضل تماما يثير فينا عاطفة الاشمئزاز لا عاطفة الشفقة، كما أن سقوط الشرير تماما يثير فينا عاطفة الرضا لا عاطفة الشفقة .

يجب أن ينتقل البطل من حالة السعادة إلى حالة الشقاء.[1]

إذا انتقلنا من الإرهاصات الأولية لعلم نفس الأدب إلى اهتمام علماء النفس المعاصرين بالظاهرة الأدبية فكثيرا ما نجدهم اتخذوا من الأدب مادة أولية لموضوعاتهم النفسية فاستنبطوا من دراساتهم للأعمال الأدبية الكثير من الحقائق النفسية . فهذا فرويد رائد علم النفس يعترف أنه تعلم من الأدباء أكثر مما تعلم من أي عالم آخر ، و أن الأدباء هم الذين اكتشفوا قبله العقل الباطن ، و يؤكد في هذا السياق أن اللاشعور هو مصدر العملية الإبداعية " فالأديب عصابي أو مريض نفسيا و هو يبدع أدبا و فنا كوسيلة من وسائل التسامي لذلك فإن الأعمال الأدبية في جوهرها صور محولة عن الدوافع المكبوتة في اللاشعور ، فالأعمال الأدبية شواهد على مرض صاحبها النفسي ، لأنها تتضمن العقد و الطباع و التأويلات الباطنية ، فنتاج الأديب صورة لنفسه و تاريخ لحياته الباطنية " [2]و هو تاريخ يترجم كيفية تشكيل الشخصية إبداعيا من حيث تركيبتها النفسية و سلوكاتها و طموحاتها ...إلخ.

و إذا كان فرويد يسهب في الحديث عن اللاشعور الفردي و تأثيره الخاص على العمل الأدبي فإن تلميذه يونغ يركز على "اللاشعور الجمعي" و يعيد مصدر الإبداع إلى " الملكات و الميول الكامنة في الجنس البشري و هذا المخزون من الميول البشرية و

---

[1]- شكري عزيز الماضي: محاضرات في نظرية الأدب ،ص15.

[2] –Jérome Roger : La critique Littéraire,p63.

التطلعات و الأشكال و الأحلام ليس جامدا إنه مجموعة من القوى التي سوف تجد تعبيرها ما استطاعت" [3]عن طريق الحلم أو عن طريق الإبداع.

لقد تأثر النقد الأدبي بمعطيات علم النفس هذه و اكتشافاته و راح يطبقها على النصوص الشعرية و السردية ، و كان الاهتمام بالنص من الوجهة النفسية يتم عبر مجموعة من الحقول هي كالآتي :

1-لاوعي المؤلف : و يهتم الدارس في هذا المجال بالمبدع ، فيتم الربط بين إنتاجه الأدبي و تاريخه الشخصي مع التركيز على مرحلة هامة في هذا التاريخ هي مرحلة الطفولة باعتبار أنها المرحلة الأكثر حسما في توجيه سلوك الإنسان مستقبلا . فالشاعر برأي التحليل النفسي " محكوم بجملة تجاربه الطفولية التي تمثل الجذر الأساسي لإبداعه و المرجعية الحقيقية لما يستخدمه من رموز و لما يوظفه بعد ذلك من أدوات الإبداع الأدبي " و يبالغ بعض الدارسين اعتبار العبقرية الإبداعية لونا من ألوان الجنون و الشذوذ ، فالإبداع يلخص قمة التوتر بين نفس المبدع و بين الجماعة التي ينتمي إليها ، هذا التوتر يجد متنفسه في التعبير الأدبي ، و المؤلف حسب هذا التوجه مجنون ، شاذ ، تنطوي ذاته على كثير من العقد و الرغبات و تمظهرات العصاب التي يتسامى بها عبر الإبداع.

2- دراسة العمل الأدبي من حيث هو فضاء من الشخصيات المركبة و المعقدة نفسيا ، و تفسير سلوكاتها في ضوء المعطيات العلمية التي حاولت إضاءة عالم النفس ، و ينطلق الدارس في هذا المجال من فكرة مسبقة هي "افتراض وجود بنية نفسية تحتية

[3] –S.Freud : délires et reves dans la gradiva de jensen ,Paris , Gallimard, 1966, p127.

متجذرة في لاوعي المبدع تنعكس بصورة رمزية على سطح النص ، لا معنى لهذا السطح دون استحضار تلك البنية الباطنية " و من هنا تدرس شخصيات العمل الأدبي الورقية على أنها شخوص حقيقية .

3- دراسة الصور الشعرية و الرموز و الأساطير التي تعكس بالضرورة خلفيات نفسية قد تختص باللاشعور الفردي أو الجمعي .

4-دراسة استجابة القارئ و انفعالاته إزاء النص المقروء.[4]

و مثل كل المناهج الغربية المنشأ انتقل الاهتمام بالمنهج النفسي إلى الوطن العربي في شكل دعوات نظرية في البداية ثم راح النقاد يحللون أعمالا إبداعية قديمة و حديثة في ضوء معطيات علم النفس ، مع تباين الإجراءات المتخذة في معالجة الأعمال. و قد كان محمد خلف الله رائدا في مجال الدعوة النظرية إلى إقامة الصلة بين الأدب و علم النفس ، و ذلك عبر كتابه " من الوجهة النفسية في دراسة الأدب و نقده " أين يؤكد ضرورة مثل هذا المنهج ، لأن الأدب من إنتاج الإنسان و يرتبط بخبايا النفس الإنسانية ثم إن طبيعة المرحلة (الثلاثينيات) و ما تنطوي عليه من تطور في العلوم الإنسانية تفرض تجاوز مسألة التذوق و تمييز الجيد من الرديء إلى المعرفة و محاولة فهم العمل الأدبي كعالم ثري تنعكس فيه رغبات الإنسان و عقده و أحلامه و مختلف أشكال التعويض التي يمارسها [5]

---

[4] - ينظر يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ، ص23-24.

[5] - ينظر محمد خلف الله : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب و نقده مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة ، 1974، ص 10 و ما بعدها.

و يعد أمين الخولي واحدا أيضا من الذين تحمسوا للمنهج النفسي ، و قد تناول في ظله أبا العلاء المعري ، ووقف تحديدا عند القضايا المحيّرة في سيرة أبي العلاء ، مثل موقفه من المرأة و الزواج و النسل و زهده في ما حلله الله من لحوم و حيوان . و خلص الناقد إلى أن أبا العلاء كان متناقضا في مواقفه و يرجع أسباب تناقضه إلى الرغبة اللاشعورية في التعويض عن فقدانه لبصره و محاولة الاستعلاء على قهر الواقع الطبيعي و الاجتماعي للشاعر [6]. لكن مع هذا يبقى أكبر ممثل للمنهج النفسي في النقد العربي الحديث هو الدكتور عز الدين إسماعيل صاحب كتاب " التفسير النفسي للأدب " و لعل ما يميز تطبيقات عز الدين إسماعيل هو اهتمامها بالعمل الأدبي نفسه و عدم التركيز على الأديب و حياته الخاصة ، لأن عقد العمل الأدبي ليست بالضرورة تمثيلا لعقد الأديب . و قد تناول عز الدين إسماعيل بالتحليل الشعر و القصة و المسرحية ، فقد حلل بعض الأشعار كما حلل رواية "السراب" لنجيب محفوظ و مسرحية علي باكثير " شهرزاد" حيث حاول الناقد إضاءة العالم الخفي لشهريار و سر استمتاعه بقتل زوجاته الواحدة تلوى الأخرى بعد أن يقضي مع كل واحدة ليلة كاملة ، و يعتقد الناقد أن سر استمرار شهريار في قتل زوجاته لا يكمن في الحقيقة في فكرته بأن كل النساء خائنات ، فهذه محاولة لإقناع نفسه فقط بضرورة القتل ، لكنه يكمن في كون كل النساء – في نظره- يشبهن زوجته الأولى في التعفف و الترفع عن النزوات

[6] - أمين الخولي : رأي في أبي العلاء المعري ، طبع عام 1363ه ،ص 28.

الشهوانية ، و هو ما يشكل مركز الصراع النفسي عند شهريار الذي كان مؤمنا في - لاشعوره –أن درجات الرجولة تتحقق عبر درجات العربدة و الشهوانية.[7]

نشير في هذا السياق إلى أن المنهج النفسي عرف نقلة هامة مع الناقدين شارل موران Charles Mouran و جاك لاكان Jacques Lacan . لقد اهتم موران بدراسة مالارمي و راسين من الوجهة النفسية بالاستناد على المعطيات اللغوية و التصويرية ، فجعل النقد النفسي يتجاوز الأسلوب العيادي المحض إلى التحليل النقدي المرتبط أكثر بالنص الأدبي، و يمكننا أن نستخلص أهم مقولاته في التحليل النفسي على النحو الآتي :

-الأسطورة الشخصية : mythe personnel و تشير إلى الشخصية اللاواعية التي يمكن تركيبها من خلال " تداعي الصور المجازية بعضها ببعض لتركيب شبكة من الدلالات المستقلة عن التراكيب الواعية ...فهذه الشبكة الدلالية تمثل الجانب اللاواعي من حياة الأديب الخفية و هي التي تقودنا إلى الصورة الأسطورية"[8]

-التطابق : و يتعلق الأمر بالبحث في العلاقات العميقة التي تحكم النص " و هذا الاتجاه في الدراسة يوضح في العمل الأدبي بعدا جديدا ألا و هو العمق اللاشعوري الذي نصل إليه عن طريق ذلك المعنى الذي يتضمن في الواقع"[9]

-الدراسة السيرية Etude biographique :إن الإلمام بسيرة المبدع يضيء و لا شك بعض جوانب النص الأدبي ، إذ أن هذا الأخير يعد مؤشرا على الطريقة التي تعرض فيها الذات نفسها وفق التسلسل التاريخي، و يمكن بالتالي التعرف إلى الخارج في ظل الذات أو التعرف إلى الذات في ظل الخارج.

-التشكيلات التصويرية و المواقف الدرامية formations picturales et situations dramatiques: إن كل نص أدبي " يتشكل من مجموعة من البنى التي تتضافر مع بعضها ، و

---

[7] - عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1963، ص198.

[8]– عبد اللطيف حني :جماليات النقد النفسي عند شارل مورون، (ضمن العلوم الإنسانية و النقد الأدبي ، النقد النفسي ،فعاليات الملتقى الدولي الثالث حول الخطاب النقدي العربي المعاصر) ، دار الهدى ، عين مليلة ، 2009، ص523.

[9]– نفسه ، ص528.

تتقاطع ضمنها كل العلاقات الممكنة و الكامنة في المعنى و هذه البنى ترسم تشكيلات تصويرية أو مواقف درامية"[10] قد تعكس مأساة أو ملهاة .

أما بالنسبة لجاك لاكان فنحن نصطدم بترسانة من المصطلحات ذات الصلة باللسانيات، لكنها تُحمل بمدلولات نفسية ، و لا عجب في هذا إذا أدركنا أن لاكان يعتبر الإنسان نتاج اللغة ، فالذات كائن متكلم ، و يمكن أن نوجز أهم مقولات لاكان في التحليل النقدي – النفسي في الآتي :

-العرض symptome: إنه " دال لمدلول مكبوت من وعي الذات "[11]

- المجاز الرسل metaphore expiditeur : و هو آلية دفاعية ، إنه وسيلة الرغبة "للإفلات من الرقابة ، و يمكننا أن نصف المجاز المرسل أنه هرب أهوج للرغبة من دال إلى دال "[12] إنه بالأحرى تحايل الدوال للإفلات من كل رقابة.

-الاستعارة metaphore: شبيهة بالمجاز المرسل من حيث كونها وسيلة للتحايل و الانفلات ، و هي شكل من أشكال التنفيس و تحقيق التوازن النفسي و تجنب كل أنواع التهميش.

-الآخر L'autre :و الآخر عند لاكان هو " المكان الغريب الذي يصدر عنه كل خطاب مكان العائلة و القانون و الأب" [13] فالذات محكومة بسلطة هذا الآخر مما يفقد خطابها الحرية و يجعله محكوما دائما بعلاقات قاهرة في معظم الأحيان.

-الرمزي le symbolique: الرمزي عند جاك لاكان هو نظام الثقافة ، و هو بعبارة أخرى الأنا الأعلى التي تضغط على الذات ن لكنها في الوقت نفسها تلعب دورا أساسيا في تكوين الفرد و المحافظة على وجوده في الحيز المقبول الذي يجنبه تأنيب الضمير .

-الخيالي l'imaginaire : حيث يصير " الأنا هو الخيالي مكان التخيل ، مكان التنوع و التغير و ملحقات الذاتية المتحركة و الهشة" [14] و ذلك بغرض تحقيق التكيف مع المجتمع و الآخر .

---

[10]–نفسه ، ص532-533

[11]–جاك لاكان : اللغة الخيالي و الرمزي ، إشراف مصطفى المسناوي ،منشورات ، الجزائر ، ط1 ، 2006،ص14.

[12]–نفسه ، ص18.

[13]–نفسه ، ص21.

-الواقعي Le réel : يهدف الواقعي إلى بلوغ اللذة ، و يمكن القول إنه " الهو ، فلا مكان له إلا من خلال قلب المعنى ، إنه مكان اللاّمكانات و سبب البنية الغائب ، البنية التي يسميها لاكان الواقعي و يتموقع إنتاجه ضمن التنظيم الذاتي على سطح موضوعات الرغبة .

- الدال signifiant و المدلول signifie: استقى لاكان مصطلح الدال و المدلول من لسانيات فرديناند دو سوسير و أعطاهما بعدا نفسيا ، و للدال الأهمية الكبرى في بنية الإنسان ، فهو الذي يحدد دور الذات و وظيفتها و مكانتها بالنسبة للآخرين ، إنه يعبر عن الرغبات لكنه يسبق المعنى و يحضر له . أما المدلول فعو بمثابة " المكبوت الذي لا يفتأ أن يعود و يبرر وجوده بعديد من الدلالات التي تكون حلقات السلسلة عبر الاستعارات و المجازات"[15] إنه المكبوت الذي يخرجه الدال من صورته اللاشعورية إلى صورته السمعية.

و على العموم فالاتجاه النفسي مثله مثل الاتجاه الاجتماعي و التاريخي وصف بالقصور عن إدراك جوهر الأدب و اتهم مطبقوه بأنهم كثيرا ما يجبرون النص الأدبي على التحلي بالعقد الجنسية و النفسية ليستثمروا المعارف النظرية التي أمدهم بها علم النفس ، و ينسون أو يتناسون أن المستوى الذي يحقق للأدب أدبيته هو المستوى الجمالي ، و من هنا انشغلت المناهج النقدية فيما بعد بأنساق النص بدل سياقاته الخارجية.

---

[14]-نفسه ، 22.

[15]ـــنفسه ، 95.-96